في الاصطلاح والمصطلح

ذ. محمد الزكراوي(*)

لم تعرف العرب – في الجاهلية ولا في فجر الإسلام – لفظ الاصطلاح ولفظ المصطلح، بالمعنى الذي لهما في العلم المسمى باسمهما ، فلذلك لم يقع هذان اللفظان بذلك المعنى في معجمات اللغة العربية المشهورة،مثل جمهرة ابن دريد وصحاح الجوهري ومقاييس ابن فارس ولسان ابن منظور ومصباح الفيومي وقاموس الفيروزابادي، وإنما فيها الاصطلاح بمعنى التصالح والمصالحة واصطلح بمعنى تصالح، بيد أن أهل العلوم والصناعات – لاسيما بعد ظهور الإسلام – كانوا في حاجة إلى لفظ جامع يدلون به على ما استحدثوه من مفاهيم ومعان في مباحثهم و دراساتهم، ولم يقع بينهم اتفاق في بادئ الأمر على كلمة واحدة يستعملونها جميعاً للإشارة إلى الاصطلاح ، فرأيناهم في مصنفاتهم يتداولون ألفاظا تناهز العشرة- فيما استطعنا أن نحصيه- تدل كلها على الاصطلاح والمصطلح.

1- ألفاظ الاصطلاح

وأهم تلك الألفاظ وأكثرها جريانا على ألسنتهم – ورقما على صحائف كتبهم – الاسم واللفظ واللقب. قال الإمام الشافعي (ت 204 هـ) في كتاب "الرسالة" [1] وسأله سائل : "ما القياس؟ أهو الاجتهاد أم هما متفرقان؟ (قال): هما اسمان لمعنى واحد "؛ثم أضاف بعد صفحات يسيرة: "والقياس وجوه يجمعها القياس"، يريد أن اسم القياس، أو مصطلح القياس، يطلق على مسمى له وجوه كثيرة يجمعها ما به سميت قياسا. وقال القاسم بن سلام (ت 224هـ) في كتاب"الأموال " [2]: " فالأموال التي تليها أئمة المسلمين هي هذه الثلاثة التي ذكر عمر (بن الخطاب)، وتأولها من كتاب الله عز وجل: الفيء والخمس والصدقة؛ وهي أسماء مجملة يجمع كل واحد منها أنواعا من المال ". وقال الجاحظ (ت225هـ) في كتاب "البيان والتبيين"[3]: "وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك ألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء". وقال ابن المعتز (ت296هـ) في كتاب "البديع" [4]: "البديع اسم موضوع لفنون من الشعر". وقال أبو حاتم الرازي (ت322هـ) في كتاب "الزينة": "هذا كتاب فيه معاني أسماء واشتقاقات ألفاظ وعبارات عن كلمات عربية يحتاج الفقهاء إلى معرفتها"[5].وقال ابن ولاد (ت (332 هـ) في كتاب "المقصور والممدود"[6]: و المقصور في اللغة اسم عام لكل ما قصر من كلام أو غيره، وإنما جعله النحويون لكل اسم كانت في أخره ألف في اللفظ ". وللفارابي (ت 339 هـ) كتاب نشر بعنوان "كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق "، ولابن حزم (ت456هـ) رسالة" في تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول ". وقال ابن رشيق (ت456 هـ) في كتاب "العمدة "[7] في حديثه عن الإيجاز: "ولكل نوع منه تسمية سماها أهل هذه الصناعة ". وقال ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) في كتاب "سر الفصاحة"[8]: "ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلميـــن

(*) أستاذ باحث – المغرب

والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم، لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام اصحاب تلك الصناعة". وقال أيضا بعد أوراق يسيرة: "وقد صنف العلماء في باب القوافي كتبا بينوا فيها ما تجب إعادته، ووضعوا لتلك الحروف والحركات أسماء". وقال السيرافي (ت 368هـ) في كتاب "صنعة الشعر"[9]: "هذا باب الألقاب، اعلم أن ألقاب العروض تنفع في علمه ومعرفة أجزائه ". وقال الخطيب التبريزي (ت502هـ) في كتاب "الكافي في العروض والقوافي " [10]: "وهذه بقية الألقاب التي يجب معرفتها في علم العروض" وقال الآمدي (ت 370هـ) في كتاب "الموازنة ":[11] "وهذا باب- أعني المطابق- لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر".. المتكافئ، وسمى ضربا من المجانس المطابق... وما علمت أن أحدا فعل هذا غير أبي الفرج، فإنه وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات وكانت الألفاظ غير محظورة، فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه، مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره، ممّن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوه إلى اللقب وكفوه المؤونة". وجمع ابن خلدون(ت 808 هـ) بين اللفظ واللقب في قوله في الفقهاء[12]: "ولهم (في الحديث) ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة، مثل الصحيح والحسن، والضعيف والمرسل، والمنقطع والمعضل، والشاذ والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم ". وعقد السيوطي (ت911 هـ) في كتاب "المزهر" فصلا سماه "النوع العشرون في معرفة الألفاظ الإسلامية" نقل فيه عن أبي الفتح بن برهان (520هـ) قوله: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل (ألفاظا ذكرها ابن برهان) من اللغة إلى الشرع، ولا تخرج بهذا النقل عن أحد قسمي كلام العرب، وهو المجاز؛ وكذلك كل ما استحدثه أهل العلوم والصناعات من الأسامي، كأهل العروض والنحو والفقه، وتسميتهم النقض والمنع والكسر والقلب وغير ذلك، والرفع والنصب والخفض، والمديد والطويل، وصاحب الشرع إذ أتى بهذه الغرائب التي اشتملت الشريعة عليها من علوم حار الأولون والآخرون في معرفتها مما لم يخطر ببال العرب، فلا بد من أسامي تدل على تلك المعاني".

إذاً ، إلى حدود الربع الأول من القرن السادس الهجري، لم يعرف علماء العرب من الألفاظ الجامعة لمعنى الاصطلاح والمصطلح سوى الألفاظ التي ذكرناها، وهي اللفظ والاسم واللقب، ولم يتفقوا على اسم واحد اتفاق العلماء اليوم على اسم "المصطلح ". ولا يذهبن أحد إلى أن هذه الأقوال لا يستوي أصحابها جميعا في مرتبة واحدة من الوعي بالاصطلاح وبالمفهوم الذي وضع له ذلك الاصطلاح، بدعوى أن ظاهر بعضها يوهم بأن أصحابها إنما قصدوا بما سموه "لفظا" و "اسما) " و "لقبا" ما يسمى به الشيء ليتميز عن غيره ويتعين عما عداه، وأنهم لم يكونوا على بينة من أنه اصطلاح، أي لفظ داخل في نظام متناسق متجانس من المفاهيم وضع للدلالة عليه نظام متجانس متناسق أيضا من الاصطلاحات، تعبر فيه تعريفات هذه عن مضامين تلك وليس مجرد اسم على مسمى لا يختلف في شيء عن غـــيره من الأسماء التي تطلق في لغة على المسميات؛ فتلك دعوى باطلة، سنبين في محله وجه بطلانها؛ وإنما مرادنا الآن التنصيص على أن هؤلاء العلماء جميعا وغيرهم ممن لم نذكرهم سموا الاصطلاحات التي استحدثوها واخـــترعوها رأسا، أو تواضعوا عليها فيما بينهم أسماء وأسامي وألفاظا وألقاباً، ولم يرد عند أحدهم البتة لفظ "الاصطلاح" ولا لفظ "المصطلح" [13]

واستعمل القدماء أيضاً "الكلمة"بمعنى "الاصطلاح"، فكتاب الزينة الذي تقدم ذكره عنوانه الكامل هو "كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية" . وقد أكد واحد من أعلام المنظرين المعاصرين لعلم الاصطلاح [14] أن الكلمات، أي أصغر وحدات اللغة، هي قطب رحى هذا العلم، ولا يخفى عليه أن لعلماء اللغة المعاصرين اصطلاحات كثيرة دلوا بها على وحدات في اللغة أصغر من الكلمة، لكنها عنده لا تفي بما تفي به الكلمة في هذا العلم. ، وأطلقوا أيضاً لفظ "اللغة" على الاصطلاح. قال الغزالي (ت 505 هـ) في الفلاسفة إنه لا "يمكن مناظرتهم إلا بلغتهم"[15]، أي بما اصطلحوا عليه من الألفاظ. وللعكبري (ت 616 هـ) كتاب سماه "لغة الفقه"، ولا شك أن المراد عنده هو اصطلاحات الفقهاء. وقال طاش كبرى زاده (ت968 هـ) في "مفتاح السعادة"[16]: "ومما يختص بلغة الفقهيات "المغرب" للمطرزي". وربما دل لفظ "الأوضاع" أيضاً على الاصطلاحات: فقد ورد في عنوان مصنف للزفتاوي (957هـ) هو "منهاج الإصابة في أوضاع الكتابة "[17]، ولعله يريد بالأوضاع هنا الاصطلاحات وغيرها من التقاليد والرسوم التي جرت عليها العادة في دواوين الكتاب. وقالوا كذلك "الكلام" يريدون "الاصطلاح" وقد قدمنا شاهداً عليه، وقال ابن الندم(ت385هـ) في الفهرست [18] في ترجمة الفراء، نقلا عن ثعلب،قال: "وكان الفراء يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته. (قال ابن الندم شارحاً): يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة".

وورد في كتب علماء القرآن والحديث خاصة لفظ يوشك أن يكون دالا على الاصطلاح، هو لفظ "الغريب". وذلك أنه " لما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت" [19]، فصار لألفاظ المؤمن والمسلم والمنافق والكفر والفسق والصلاة والصوم وغيرها معان مختلفة عما تعارفته العرب قبل الإسلام. وقد قدمنا أن ابن برهان ذكر أن صاحب الشرع أتى "بهذه الغرائب التي اشتملت الشريعة عليها". وقال أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) في مقدمة كتابه "تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب" : "لغات القرآن العزيز على قسمين: قسم يكاد يشترك في فهم معناه عامة المستعربة وخاصتهم، كمدلول السماء والأرض وفوق وتحت، وقسم يختص بمعرفته من له اطلاع وتبحر في اللغة العربية، وهو الذي صنف أكثر الناس فيه، وسموه غريب القرآن " [20].

وذكر ابن خلدون أن أئمة علم الحديث لا يفوتهم أبدا أن يأتوا في مصنفاتهم " بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث، من غريب أو مشكل أو تصحيف" [21]بل ربما أفردوا عن مسائله "الناسخ" والمنسوخ فيجعل فنا برأسه، وكذا الغريب " [22]. وذكر القفطي (ت646هـ) في كتابه " إنباه الرواة " كتاب" غريب القرآن لأبي عبد (الرحمان بن اليزيدي (ت237هـ) وقال إنه "يستشهد على كل كلمة من القرآن بأبيات من الشعر [23]. وللراغب الأصفهاني (ت 502هـ) كتاب عنوانه "المفردات في غريب القرآن" [24] قال في أوله: "ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب... وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم وشعرهم". يتضح مما تقدم أن هذه الكتب تجمع بين اللغة العامة واللغة الخاصة، أي لغة التخاطب ولغة أهل الصناعة، فلولا أنها جامعة – تحت اسم "الغريب"– لمعاني الألفاظ اللغوية والألفاظ الاصطلاحية على حد سواء لكان لفظ "الغريب" من المفردات القائمة في التراث العربي الإسلامي مقام

الاصطلاح والمصطلح مثلما دلت عليه الألفاظ المذكورة قبل، ولكانت الكتب المؤلفة فيه حقيقة بأن تعد جوامع اصطلاحية.

قلنا إن القدماء استعملوا الألفاظ التي أحصيناها دالين بها على الاصطلاح، وأنهم لم يستعملوا لفظ الاصطلاح البتة، واستشهدنا على ذلك بأقوالهم ، بَدْءاً بعلماء القرن الثاني (كالخليل بن أحمد)، وانتهاء بعلماء القرن العاشر(كالسيوطي)؛ وإنما جزمنا بذلك ابتغاء الوضوح في العرض وحتى لا تختلط الأمور ببعضها ، وإلا فلفظ "الاصطلاح" يكاد يكون قديما قدم تلك الألفاظ التي قامت مقامه. وقد بدأ العلماء يستعملونه — فيما استطلعنا الوقوف عليه من مصنفاتهم — ابتداء من القرن الرابع، وهي الحقبة التي بلغت فيها الحركة الفكرية والعلمية العربية الإسلامية أوجها وذروتها . وأول من ذكر الاصطلاح بالمعنى الذي نريده هو محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب (ت 387هـ) في كتابه "مفاتيح العلوم" قال في مقدمته إن غرضه فيه أن يكون "جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، متضمنا ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات، التي خلت منها أو من جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة " [25]. وجاء أيضاً لفظ "الاصطلاح" بالمعنى الذي نقصده في إحدى رسائل محي الدين الأصفهاني (ت بعد441هـ)، وهو نصراني، قال في رسالة سماها "رسالة أشرف الحديث في شرفي التوحيد والتثليث "[26]: " إن لكل من الملتين والنحلتين (يعني اليعاقبة والنساطرة)، بل من أرباب الحرف والصنائع، عبارات اصطلحوا عليها، واصطلاحات تداولوها فيما بينهم". وورد لفظ "الاصطلاح" في كتاب الغزالي المسمى "معيار العلم" : فقد عقد فيه فصلا لإطلاع المتعلم "على معاني أسماء أطلقها الفلاسفة، إذ لم يمكن مناظرتهم إلا بلغتهم وعلى حكم اصطلاحاتهم " [27]. وذكر أن "المستعمل في الإلهيات خمسة عشر لفظاً"، فسماها وعرفها في قسم أول، وجعل القسم الثاني للألفاظ المستعملة في الطبيعيات، قال: "ونذكر منها خمسة وخمسين لفظاً". وفي مقدمة هذا الكتاب قال إنّ أحد الباعثين له على تصنيفه هو "الإطلاع على ما أودعناه كتاب تهافت الفلاسفة، فإنا ناظرناهم بلغتهم، وخاطبناهم على حكم اصطلاحاتهم التي تواطؤوا عليها في المنطق". وجاء لفظ "الاصطلاح" أيضاً في عنوان كتابين من كتب الصوفية وفي متن الثاني منهما، أولهما لابن عربي (ت638هـ)، قال حاجي خليفة" [28] : "صنفه في صفر سنة خمس عشرة وستمائة"، والثاني للكاشاني (ت730هـ)، والظاهر أن عنوان الأول ليس من وضع المؤلف. قال ابن عربي في مقدمة رسالته في "اصطلاحات الصوفية" [29]: "أما بعد،فإنك أشرت إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحققون، (وإن الناس) سألونا في مطالعة مصنفاتنا ومصنفات أهل طريقنا، مع عدم معرفتهم بما توطأنا عليه من الألفاظ التي بها يفهم بعضنا عن بعض، كما جرت عادة أهل كل فن من العلوم" . وقال الكاشاني في أول كتابه [30]: "وبعد، فإنني لما فرغت من تسويد كتاب شرح منازل السائرين، وكان الكلام فيه ... مبنيا على اصطلاحات الصوفية، ولم يتعارفها أكثر أهل العلوم المعقولة والمنقولة، ولم تشتهر بينهم، سألوني أن أشرحها لهم" [30]. وتكرر لفظ "الاصطلاح" أكثر من عشرين مرة في مقدمة ابن خلدون [32]، لكثرة العلوم والفنون والصناعات التي عقد فيها الكلام عليها، ولوعيه أيضاً بقيمة الاصطلاح . ثم وضع العلامة علي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف الجرجاني (ت816هـ) كتابه الشهير الموسوم بالتعريفات، فذكر فيه الاصطلاح وعرفه،

فقال : "الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول" [33]. وخير ختام لما قلناه على الاصطلاح هذه الكلمة التي يتبين فيها منـــزلة الاصطلاح من العلم. قال حاجي خليفة (ت 1067هـ) في كتابه " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، في فصل أرخ فيه لتدوين العلم [34] : "أخذوا في تدوين الفقه والحديث وعلوم القرآن، واشتغلوا بالنظر والاستدلال، والاجتهاد والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الأبواب والفصول، وتكثير المسائل بأدلتها، وإيراد الشبهة بأجوبتها، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات".

أما لفظ "المصطلح" الذي كثر جريانه اليوم على ألسنة المهتمين بشؤون الاصطلاح وغيرهم،فقد زعم بعض الباحثين[35] أنه غير صحيح لغة إلا أن يقال: المصطلح عليه، لأن "اصطلح" يتعدى بحرف الجر " على" فينبغي لاسم المفعول المشتق منه أن يتعدى تعديته، مثل ما قال أبو بكر الرازى(ت313هـ): "خبرني عمن علم أن المنادى بالنداء المفرد مرفوع، وأن المنادى بالنداء المضاف منصوب، أعلم أمراً اضطراريا طبيعيا أم شيئاً مصطلحاً عليه باجتماع من بعض الناس عليه دون بعض"[36]، ومثل ما قال الإمام السهيلي (ت 581هـ): " وأما الفعل والحرف فعبارتان مصطلح عليهما عند النحويين" [37]، وادعى هذا الباحث " أن أسلافنا لم يستخدموا" هذه الكلمة. ولو أجال الطرف في صفحات التراث لوقع على العجب العجاب، وذلك أن لفظ "المصطلح" قديم في الآداب العربية، يعود أول استعمال له — فيما استطعنا الوقوف عليه منها- إلى النصف الأول من القرن السادس. ففيه عاش أبو منصور البروي الفقيه الشافعي (ت 567هـ) وألف كتابه المشهور الموسوم بالمقترح في المصطلح[38]، قال فيه ابن خلكان" : وأكثر اشتغال الفقهاء به، وقد شرحه الفقيه تقي الدين المصري المشهور بالمقترح... واشتهر باسمه لكونه يحفظه، فلا يقال له إلا التقي المقترح". ثم ألف ابن عربي كتاب "رشح الزلال في مصطلحات أرباب الأذواق والأحوال" [39]، وابن فضل الله العمري (ت749هـ) كتاب" التعريف بالمصطلح الشريف"[40]، والطرسوسي (ت758هـ) كتاب"الإعلام بضبط مصطلح الشهود والحكام"[41]، والجرجاني (ت 788هـ) كتاب "المواهب الإلهية في مصطلح الديار المصرية"[42]،وابن القاصح (ت801هـ)كتاب "مصطلح الإشارات في القراءات الثلاثة عشر المروية عن الثقات"[43]،وابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) رسالة "نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر"[44]،وشرحها القاري (ت 1014هـ) وسمى شرحه "مصطلحات أهل الأثر على شرح نخبة الفكر"[45]وصنف علي خان الهندي(ت1069هـ) كتاب"مصطلحات الشعراء"[46]، والدمياطي المعروف بابن الميت (1140هـ) كتاب "صفوة الملح بشرح البيقونية في المصطلح"[47]، ووضع الحريشي الفاسي (ت1145هـ) مصنفاً سماه "شرح منظومة ابن زكري في المصطلح" [48]، بل لقد جاء لفظ "المصطلح" في عنوان كتابين ألفهما صاحباهما بالفارسية ، أولهما "مصطلحات الشعراء" لوارسته اللاهوري، و الثاني "مصطلحات شاه جيهاني" لمحمد أحسن البلكراني الهندي[49]،وذكر طاش كبرى زاده[50] في الفصل الذي خصه لعلم الترسل كتابا سماه "مصطلح الكتاب وبلغاء دواوين الحساب "، ولم ينسبه إلى أحد. ومعنى لفظ "المصطلح" في جلها — إن لم يكن فيها كلها- هو الوحدة الاصطلاحية المعتمدة في علم الاصطلاح، يدل على ذلك إيرادهم هذه اللفظة بصيغة الجمع.

ولم نجد لفظ "المصطلح" في عناوين الكتب فحسب، بل في متونها أيضاً. استعمله الصفدي (ت 674هـ) في كتابه " فض الختام عن التورية والاستخدام" ، الذي فرغ منه — على ما جاء في مقدمة محققه، [51] — قبل ثماني عشرة سنة من وفاته، أي قبل سنة 746هـ ذكر في أول الكتاب أن التورية- وهي باب من أبواب البديع- لم تكن مقصودة لذاتها عند الشعراء المتقدمين ، وأن المعتني بها هم الشعراء المحدثون، وأتى بأمثلة من شعر هؤلاء وهؤلاء، قدم أحدها بقوله [52]:

"ومن هذه الملح، في هذا المصطلح"، ثم أنشد بيتين فيهما تورية. فلا يخلو: إما أنه أراد بالمصطلح ما نعرفه اليوم، فسمى التورية المذكورة قبل مصطلحا، وإما أنه أراد النهج والمهيع والطريقة، لكن تكلف السجع اضطره إلى الإتيان بلفظ "المصطلح" ليناسب قوله "الملح"؛ وكيف السبيل إلى ترجيح إرادة المعنى الثاني ولم نجد له في كتب اللغة أشباها ونظائر تسوغ القول به، إذ لفظ "المصطلح" منعدم فيها البتة، فلا يبقى إلا الأول. واستعمل ابن خلدون هذا اللفظ أيضاً في عدة مواضع من مقدمته وفي موضعين من سيرته المسماة بالتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. قال في المقدمة [53]: " وقد يفرد كل صنف (من هذه الوظيفة) بناظر، كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر وإقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك، على حساب مصطلح الدولة وما قرره أولوها". وقال فيها أيضاً [54]: "إن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم، فتستعجم على غيرهم، لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم، وإحاطة كثير ممن دونهم بمصطلحهم، فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوا" . وعنون أحد فصول المقدمة بقوله: " فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان ... "

وذكر في التعريف بنفسه أنه ولي خطة القضاء مرة فعاداه قوم من المشعوذة ، فحكى من أمرهم معه ما حكى، إلى أن قال [55] : و"تبين أمرهم للسلطان، وأمضيت فيها (يعني حكومة ذكرها) حكم الله تعالى إرغاما لهم، "فغدوا على حرد قادرين"، ودسوا لأولياء السلطان وعظماء الدولة يقبحون لهم إهمال جاههم ورد شفاعاتهم، مموهين أن الحامل على ذلك جهل المصطلح (...) وعن قريب تداركني اللطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان — أيده الله- في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت — كما زعموا- مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول". وذكر الأستاذ دوزي من مادة "صلح" في قاموسه المسمى "تكملة المعاجم العربية" هذا الموضع الأخير من كلام ابن خلدون، وترجم لفظ المصطلح فيه بما معناه: الأعراف الجارية والتقاليد السائدة والرسوم المتبعة. ولئن كانت ترجمة الأستاذ صحيحة في الموضع المذكور من كلام ابن خلدون، وأيضاً في أول المواضع التي نقلناها هنا عنه، وهو في كلامه على الدواوين والأعمال، فمن البين أن المصطلح في المواضع الأخرى مرادف للاصطلاح بالمعنى الذي له اليوم. فلو استبدلت بلفظ المصطلح من قوله " في مصطلح أهل البيان "لفظ" الاصطلاح" فقلت: "فصل في تفسير الذوق في اصطلاح أهل البيان" لما تغير المعنى في شيء.

واستعمل لفظ "المصطلح" أيضاً العلامة السيوطي، وهو من هو في علوم اللغة وغيرها. قال في "الإتقان" في علوم القرآن "[56] : "وإن مما أهمل المتقدمون تدوينه حتى تحلى في آخر الزمان بأحسن زينة علم التفسير، الذي هو كمصطلح الحديث، فلم يدونه أحد لا في القديم ولا في

الحديث". وورد لفظ "المصطلح" كذلك في تذكرة الأنطاكي (ت1008هـ)، وقد فرغ من تأليفهما 976هـ ففي الباب الثاني منها ذكر جماعة من المؤلفين في الطب من العجم، وقال: " حتى أتى الفاضل المعرب، والكامل المجرب، اسحق بن حنين النيسابوري، فعرب اليونانيات والسريانيات، وأضاف إليها مصطلح الأقباط، لأنه أخذ العلم عن حكماء مصر وأنطاكية" [57]. وجعل التهانوي (ت1158هـ) الفن الأول من كتابه "كشاف اصطلاحات الفنون" في الكلام على "الألفاظ المصطلحية العربية"، (قال): "ونذكر فيه الألفاظ غير المصطلحية" [58] ووقع لفظ "المصطلح" أيضاً في كتاب" أزهار الرياض في أخبار عياض" [59] في ما نقله المقري (ت 1041هـ) عن "بعض المتأخرين قال: " وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقي واصطلاح قروي. فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس... أما الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب". واستعمل هذا اللفظ عدد من أعلام المحققين المعاصرين: منهم الشيخ أحمد محمد شاكر. قال في مقدمة تحقيقه لكتاب الرسالة للشافعي ردا على الدكتور زكي مبارك فيما طعن فيه على الإمام: " ولكن الدكتور زكي مبارك فاته هذا عند علماء المصطلح " [60]. وكان الشيخ شاكر قد ألف قبل تحقيق "الرسالة كتابا سماه "شرح ألفية السيوطي في المصطلح". ومنهم محقق مقدمة ابن خلدون وناشرها الدكتور علي عبد الواحد وافي، فأول عنوان في التصدير الذي جعله بين يدي نشرته للمقدمة قوله: "مقدمة في التعريف بهذه الطبعة ومصطلحاتها". ومنهم الدكتور إبراهيم مدكور، قال في تصدير الطبعة الأولى للمعجم الوسيط [61] إن مجمع اللغة العربية بمصر "طلبت إليه وزارة المعارف ... أن يسعف العالم العربي بمعجم (يكون) مشتملاً على صور لكل ما يحتاج شرحه إلى تصوير، وعلى مصطلحات العلوم والفنون "وأضاف أن المجمع "قصر همه على اللغة قديمها وحديثها، وتوسع في المصطلحات العلمية الشائعة". ومنهم الدكتور إحسان عباس محقق معجم الأدباء لياقوت الحموي، ذكر فيه [62] "معجم البلدان" لياقوت أيضاً وقال إنه تناول في مقدمته موضوعات أحصاها، وذكر من بينها موضوع "المصطلحات التي يتكرر ذكرها في الكتاب، كالبريد والفرسخ والكورة والإقليم، ومصطلحات الأرض المفتوحة وأنواع الضرائب"، وهو لا ينقل عن ياقوت، لأن ياقوتا لم يستعمل البتة لفظ "المصطلح".هؤلاء العلماء جميعاً، القدماء منهم والمحدثون ، استصوبوا اسم المفعول مع إسقاط حرف التعدية المعتاد — وهو "على" — واستعملوه، وعزفوا عن اللفظ الجاري في مثل سياقه — وهو الاصطلاح- وأهملوه.

يستفاد مما تقدم أن لفظ "الاصطلاح" بالمعنى المقصود ههنا ظهر في الآداب العربية في القرن الرابع، ولا يخفى على أحد أن اللفظ — بما هو تسمية- لا تظهر الحاجة إليه إلا إذا وجد مسماه، مما يفيد أن الوعي بالشأن الاصطلاحي قد بلغ أشده في ذلك العهد. على أن المسمى قد يكون موجوداً ولا اسم له، أعني اسما واحداً مجمعاً عليه، وهو ما حدث للاصطلاح في التراث العربي، إذ نشأت في الأمة العربية علوم مختلفة، لكل واحد منها اصطلاحاته ومفاهيمه، لكن الألفاظ الدالة على جماع الاصطلاحات، مثل لفظ "المصطلح"، لم تكن موحدة ، فرأيناهم يقولون: اللفظ، واللقب والاسم والتسمية والكلمة واللغة والعبارة والكلام، كل أولئك بمعنى الاصطلاح، ثم ظهر بعد "الاصطلاح" لفظ " المصطلح "

في القرن السادس، وكان معناه يتراوح بين الإفراد والجمع، فتارة يدل على المصطلح- الوحدة، وتارة يتسع ليشمل جميع الاصطلاحات ، فيستعمل استعمال اسم الجمع واسم الجنس، وما زال على هذه الحال إلى يوم الناس هذا، يشهد عليه قول العامة والخاصة: مصطلح الحديث. لكن لفظ "المصطلح" تخص – عند ذوي الاختصاص – للدلالة على الوحدة الاصطلاحية المعلومة.

2- موارد الاصطلاح وأسسه

لقد كان علماء المسلمين – أعني السباقين منهم إلى وضع العلوم- على بينة من ضرورة المصطلح المميز عن مفردات اللغة، لإدراكهم أنهم يستنبطون علماً برأسه وفناً قائماً بذاته. فلا يتعين العلم بموضوع خاص به إلا وتظهر الحاجة إلى مصطلحات خاصة به أيضاً، تنعت بها ظواهره ووقائعه، وتسمى بها مسائله ولواحقه وكل ما يمت إليه بسبب. وكما أن تسمية الأشياء الموجودة أو المتوهمة أمر مستقر في جبلة الإنسان وطبيعته، فكذلك وضع المصطلحات على الأمور المكتشفة أو المخترعة في العلوم والصناعات أمر ثابت في صميم نشاط العالم، بل عليه ينبني أوفر نصيب من العلم الذي يستنبطه ويؤسس قواعده . فنقد الحديث مثلا – وهو علم الجرح والتعديل- لم يصبح علماً قائم الذات إلا بعد ما رتب ابن أبي حاتم (ت327هـ) ألفاظ الجرح والتعديل، وعين أبو سليمان الخطابي(388هـ) أقسام الحديث الثلاثة الكبرى، وهي الصحيح والحسن والضعيف [63]، إلى غير ذلك من اصطلاحاته التي وضعها وضبطها غيرهما من العلماء. وكان هذا دأب علماء هذه الملة من قديم. فهذا الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) لما وضع العروض أدرك أن الوقائع التي وقف عليها فيه لا بد لها من أسماء تميزها، فجعل لكل حالة اسما خاصاً. قال [64]: " رتبت البيت من الشعر على ترتيب البيت من بيوت العرب الشعر، فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة، كقول النابغة: عجلان ذا زاد وغير مزود، ثم قال: وبذاك خبرنا الغراب الأسود... وسميت تغير ما قبل حرف الروي سناداً ...، ومثل ذلك من الشعر: فاملئي وجهك الجميل خموشا، ثم قال: وبنا سميت قريش قريشاً". وتذكر كتب التراجم [65] أن الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت215هـ) زاد في أوزان العروض التي وضعها الخليل وزنا آخر سماه الخبب. وقال أبو سعيد السيرافي [66]: "فإن قال قائل: ما اسم هذا الباب من الدائرة؟ قيل له: لم ير الخليل ذكر هذا الباب البتة،ونحن نسميه الغريب"وقال ابن المعتز[67]: "ولعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتنمية مشاركتنا في فضيلته، فيسمى فناً من فنون البديع بغير ما سميناه ". وقال قدامة بن جعفر(ت 337هـ): "لما كنت آخذاً في معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها. وقد فعلت ذلك" [68]. فهؤلاء وغيرهم ممن كان لهم السبق إلى وضع علم من العلوم أو فن من الفنون كانوا جميعاً مدركين للزوم وضع مصطلحات على ما وقفوا عليه من مسميات في مسائل علمهم أو فنهم؛ قال ابن ولاد (69) : "لا بد لأهل كل صنعة من ألفاظ يختصون بها ويتفقون عليها". بل بلغ بهم إدراكهم لقيمة الاصطلاح ومنفعته أن قنعوا بالمصطلح الموضوع قبلهم وارتضوه وتداولوه إذا ظهر لهم صوابه، ولم يركبوا رأسهم ولا تعصبوا لرأيهم. مثال ذلك أن الجاحظ سبق إلى وضع مصطلح " المذهب الكلامي" على فن من فنون البديع، فاتبعه في ذلك ابن المعتز والعسكري وابن رشيق والتبريزي وغيرهم[70]. وقد ذكرنا استنكار

الآمدي لصنيع قدامة بن جعفر في تسمية ما سبق إليه بأسماء أخرى اخترعها. بل لا نتحرج في الزعم أنهم كانوا مدركين أن الاصطلاح وحدة متكاملة ونظام متناسق، وأنه لا يقبل التخليط والتلفيق، وأن العالم في اللغة مثلا لا يلبس كلامه فيها بألفاظ الفقهاء وأخبار المنجمين أو اصطلاح المتكلمين والمحدثين، ويعلمون أن ذلك ما هو من باب العلم والضبط ولا هو من جنس التملح والتندر والتأنق، وإنما هو شعوذة وتلبيس. قال ابن خلدون [71] وذكر قوما يتشبهون بالعلماء وما هم منهم: "وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك"، وقد أكد الفارابي قبله أن الحال في العلوم" كالحال في الصنائع التي يتعاطاها الجمهور: فإن النجار إنما يخاطب فيما تشتمل عليه صناعة النجارة بالألفاظ المشهورة عند النجارين، وكذلك الفلاحة والطب وسائر الصنائع" [72]، وذكرنا فيما تقدم أن ابن سنان الخفاجي قال:"إن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة" . ولعل مرد ذلك إلى القاعدة العامة التي نقلها الجاحظ عن بشر بن المعتمر ، وهي قوله [73]: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".

ومصطلحاتهم في أغلبها مأخوذة من أصول لغوية للشبه الواقع بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، لذلك عنوا عناية بالغة بتبيان معنى المصطلح لغة ومعناه في الاصطلاح العلمي. قال الخليل بن أحمد في الإقواء[74]:" وإنما سميته إقواء لتخالفه، لأن العرب تقول: أقوى الفاتل، إذا جاءت قوة الحبل تخالف سائر القوى"؛ وقال في السناد إنه " من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد منهما ملقى على صاحبه ليس مستويا". وقد ذكر المرزباني [75] في ترجمة الخليل كيف سمى أوزان العروض جميعاً، منها أنه سمى الرجز رجزاً "لاضطرابه كاضطراب الناقة الرجزاء" ، "والهزج لأنه يضطرب شبه هزج الصوت" إلى آخر ما قال في ذلك. وقال قدامة بن جعفر في الفيء [76] : "وهذه اللفظة في كلام العرب اسم للرجوع. فبحق ما وضعت اسما لما غلب المسلمون عليه من بلاد العدو قسرًا بالقتال، وجعل موقوفاً عليهم، لأن الذي يجتبى منه راجع في كل سنة"؛ وقال في الجزية: "وإنما سميت الجزية بهذا الاسم لأنها جزت من القتل، أي كفت عنه لما أداها الذي حقن بها دمه". وقال ابن قتيبة [77] في المتشابه والمشكل : "وأصل التشابه أن يشبه اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان... ثم قد يقال لما غمض ودق متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره ... ومثل المتشابه المشكل. وسمي مشكلاً لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه، ثم قد يقال لما غمض — وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة — مشكل "وقال السيوطي [78] نقلا عن ابن فارس، وعبارة الناقل أوجز: "وعلى هذا سائر أبواب الفقه. فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: فيه اسمان ، لغوي وشرعي (أي اصطلاحي)، ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثم جاء الاسلام به، وكذلك سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر، كل ذلك له اسمان: لغوي وصناعي (أس اصطلاحي). وهذه الطريقة في استنباط المصطلح هي التي تسمى النقل، وقد سقنا فيما تقدم كلام ابن برهان أن الألفاظ المنقولة من اللغة إلى الاصطلاح" لا تخرج بهذا النقل عن أحد قسمي كلام العرب، وهو المجاز" ، على أن

المجاز عام والنقل خاص: فعموم المجاز في كونه لا تخلو منه لغة من اللغات، ولا يعدمه إنسان من البشر، يؤكد ذلك قول ابن جني [79] : "اعلم أن أكثر اللغة – مع تأمله – مجاز لا حقيقة " وخصوص النقل في أنه سبيل العلماء إلى وضع المصطلحات، فكأن المجاز نقل العامة والخاصة، والنقل مجاز الخاصة وحسب. وفرق ما بينهما أن المجاز يمكن الرجوع عنه إلى الحقيقة، أما النقل فلا يمكن معه ذلك، " حتى إنك لو حاولت العودة ببعض المصطلحات إلى استعمالها الأول (كأن تستعمل الصوم مثلاً بمعنى الإمساك عن الشيء فتقول: صمت عن الكلام أو عن العمل) لتعذر عليك ذلك إلا بمجاز جديد" [80].

ولم تكن اللغة وحدها الأصل الذي يستمد منه العلماء مصطلحاتهم، بل كانت لهم – في الطب خصوصاً- أصول غيرها، أحصى بعضها ابن سينا في كتاب القانون في كلامه على أسامي الأمراض، قال: "إن الأمراض قد تلحقها التسمية من وجوه: إما من الأعضاء الحاملة لها، كذات الجنب وذات الرئة، وإما من أعراضها، كالصرع، وإما من أسبابها، كقوله: مرض سوداوي، وإما من التشبيه، كقولنا: داء الأسد، وداء الفيل، وإما منسوباً إلى أول من يذكر أنه عرض له ذلك، كقولهم: قرحة طيلانة، منسوبة إلى رجل يقال له طيلانس، وإما منسوباً إلى بلدة يكثر حدوثها فيها، كقولهم: القروح البلخية، وإما منسوباً إلى من كان مشهوراً بالإنجاح في معالجتها، كالقرحة السيروتية ، وإما من جواهرها وذواتها، كالحمى والورم" [81].

واتخذوا أيضاً إلى المصطلحات سبيلي الاشتقاق والتعريب. أما الاشتقاق فهو أظهر من أن نطيل الكلام عليه. وأما التعريب، فيرى الدكتور المسدي [82] أن له قانوناً مطردا يبدأ أول ما يبدأ بما سماه "التعريب"، وهي مرحلة يقبل فيها المصطلح الأعجمي كما هو، مع تطويعه لقواعد اللسان العربي، ثم يتلوه ما سماه "التفجير"، وهو أن يترجم المصطلح بعبارة تكون في الغالب مكلفة لكثرة مفرداتها، وتأتي في النهاية مرحلة سماها "التجريد" يصاغ فيها باللغة العربية ما يقابل المصطلح الأعجمي، فتستقر الحال عليه بالتواطؤ من العلماء جميعاً، فيصير هو المصطلح الدائر. مثال ذلك "سوفسطيقا" كذا عربوه عن اليوناني، وترجمة ابن النديم [83] بقوله : "معناه الحكمة المموهة "، ثم اصطلح عليه العلماء فيما بعد باسم "المغالطة" كما جاء عند ابن سينا وابن رشد ومن جاء بعدهما.

أما الأساس الذي قام عليه المصطلح، أعني ما به صارت الكلمة مصطلحا لا مجرد مفردة لغوية، فهو أمران اثنان: التواطؤ وكثرة الاستعمال. قال الجاحظ في علماء الكلام [84]: "وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع". وقال ابن المعتز في أول كتاب البديع: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا ...من الكلام الذي سماه المحدثون البديع"؛ وقال أيضاً [85]: "البديع اسم موضوع لـ رن من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم "ونص الخوارزمي الكاتب على أن كتابه مفاتيح العلوم " متضمن ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات". وسقنا فيما تقدم كلام ابن عربي حين سئل عن شرح "ما توطأنا عليه من الألفاظ التي لها يفهم بعضنا عن بعض" . ومن ذلك أيضاً ما رواه ياقوت (ت626هـ) في "معجم البلدان" عند كلامه على البصرة أن " من اصطلاح أهل البصرة أن يزيدوا في اسم الرجل الذي تنسب إليه القرية ألفا ونونا، نحو قولهم طلحتان، لمن ينسب إلى طلحة بن أبي رافع

إلخ". ومنه كذلك ما جاء في "وفيات الأعيان " لابن خلكان (ت 681هـ) في ترجمة الحلاج، وهو قوله : "ومن الشعر المنسوب إليه على اصطلاحهم وإشارتهم قوله "، ثم أنشد له بيتا، وأضاف قائلاً: " وقوله أيضاً على هذا الاصطلاح"، ثم أنشد له بيتاً آخر، وقال: " وغير ذلك مما يجري هذا المجرى وينبني على هذا الأسلوب". وقال ابن خلدون [86] في المتصوفة : " لهم آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ". هذا إلى ما قدمناه من كلامه في الفقهاء وأن لهم ألفاظا اصطلحوا على وضعها وألقابا متداولة بينهم. وقال أيضاً في أصحاب الكيمياء [87] : "ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا في اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد"؛ وقال أيضاً في بيان أن "الشدة على المتعلمين مضرة بهم":" واعتبره في كل من يملك أمره عليه... و انظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء، حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد ". وقال الجرجاني في أول كتاب التعريفات: " وبعد فهذه تعريفات جمعتها ، واصطلاحات أخذتها من كتب القوم". وقال ابن قتيبة في غريب القرآن إنه ذكر فيه "ألفاظاً يكثر ترادها". ووضع الكندي (ت260هـ) رسالته في الحدود وغرضه فيها "ذكر الألفاظ التي يكثر استعمالها في كتب الفلاسفة". وذكر الخوارزمي الكاتب في جميع العلوم التي سماها في كتابه ألفاظا "يكثر ذكرها" في كل علم على حدته. فهذا كله يؤكد أن الاصطلاح لا يكون كذلك إلا بتواطؤ من العلماء واصطلاح منهم عليه، وبكثرة ترداده وجريانه على ألسنتهم، وأن مدار كلامهم في صناعاتهم عليه. ويزيد هذه القضية فضل بيان أن هذا الذي تواطأ العلماء عليه وصار دائرا بينهم جارياً على ألسنتهم لا يعلمه غيرهم ولا يعرفه سواهم. قال الخوارزمي الكاتب بعد الذي نقلناه قبل من كلامه:"... المواضعات والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة، حتى إن اللغوي المبرز في الأدب إذا تأمل كتابا من الكتب التي صنفت في أبواب العلوم والحكمة، و لم يكن شدا صدرا من تلك الصناعة، لم يفهم شيئاً منه. وزاد ابن المعتز على ما ذكرناه من كلامه فقال: "فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم (يعني البديع)، ولا يدرون ما هو". وقال السيرافي إن سيبويه وأمثاله من العلماء "يستصعب على المبتدئ ما صدروه في أوائل كتبهم من الألفاظ الغامضة التي يضل عن فهمها أولو الآراء والبصائر، فضلا عمن سواهم " [88]. وهذه الألفاظ التي لا يعرفها سوى أهل الصناعة هي من التميز عن ألفاظ اللغة العامة المشتركة بحيث لا تخفى على العارفين بالاصطلاحات، العالمين بما يروج منها على لسان أهل الصناعات. يشهد بذلك ما رواه ابن خلدون، قال[89]: "أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية، قال: ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي و لم أنسبها له، وهو هذا:

" لم أدر حين وقفت بالأطلال ***

ما الفرق بين جديدها والبالي "

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له: ومن أين لك ذلك ؟ قال: من قوله ما الفرق، إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب. فقلت له: لله أبوك، إنه ابن النحوي"

ثم قد يتسع نطاق التواطؤ اتساعاً، فيتجاوز حدود أهل الصناعة إلى من عداهم، كما هو شأن الطب مثلا.

فأسماء المفردات، من نبات ومعدن وحيوان، مما يتداوى به، لا يكفي فيها تواطؤ الأطباء وحدهم، بل هم أنفسهم يسمون كثيراً من تلك المفردات بأسمائها التي تطلقها عليها العامة من الناس. وقد ذكر ابن جلجل (ت 384هـ) أن بعض المترجمين نقل كتاب ديسقوريدس في الأدوية المفردة من اليوناني إلى اللسان العربي، "وما لم يعلم له في اللسان العربي اسما تركه في الكتاب على اسمه اليوناني، اتكالا منه على أن يبعث الله من بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي، إذ التسمية لا تكون إلا بالتواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الأدوية بما أرادوا، وأن يسموا ذلك إما باشتقاق أو بغير ذلك من تواطئهم على التسمية"[90]، وكذلك فعل ابن البيطار (ت646هـ) في تفسيره للكتاب نفسه، عندما رأى "استعجام أسماء أشجاره وحشائشه على كافة المتعلمين وعامة الشادين، وتواري حقائقه عن غير واحد من الشجارين والمتطببين "، فعزم على ترجمته ، قال: "واعتمدت في ذلك على ما تصفحته من كتب القدماء، وما شافهت به كبار الأطباء، وربما ذكرت في بعض الأدوية ما يليق به من الأسماء البربرية واللطينية، إذ كانت مستعملة في مصرنا، معروفة بين أهل عصرنا" [91].

وليس هذا حكراً على الطب وحده، بل هو أمر شائع في جميع الصنائع من قديم. وقد تنبه إلى ذلك الفارابي إذ قال [92] : " وينبغي أن نعلم أن أصناف الألفاظ التي تشتمل عليها صناعة النحو قد يوجد منها ما يستعمله الجمهور على معنى ويستعمل أصحاب العلوم ذلك اللفظ بعينه على معنى آخر، وربما وجد من الألفاظ ما يستعمله أهل صناعة على معنى ما ويستعمله أهل صناعة أخرى على معنى آخر... وقد يتفق في كثير (من العلوم) أن تكون معاني الألفاظ المستعملة عند الجمهور هي بأعيانها المستعملة عند أصحاب العلوم".

ثم قد يكون هذا الذي تعارف عليه أهل الصناعة واستعملوه غير جار على سنن اللغة العربية، ومع ذلك لا يمكن العدول عنه لكثرة جريانه. قال قدامة [93] : "فيمكن الآن أن نأخذ في تعريف ما يستعمله الكتاب، من وصف الحلي وشيات الدواب، على ما جرت عليه عادتهم وألفوه، وإن كان بعض ذلك لا يوافق ما عليه مجرى اللغة، فإنا لو ذهبنا إلى تغيير ما لا يجوز في لغة العرب مما قد ألف الكتاب استعماله لتعدينا ما يعرفونه ويعملون عليه، وجئنا بما ينكره أكثرهم، ويخالف ما جرت به عادتهم. وليس كل ما يستعمله الكتاب خارجاً عن مذهب اللغة، لكن القليل منه ".

هوامش

1- الإمام الشافعي: الرسالة، حققه الشيخ أحمد محمد شاكر سنة 1309، دار الفكر، ص477.

2- القاسم بن سلام: كتاب الأموال، حققه الشيخ محمد خليل هراس سنة 1387، دار الفكر، 1988، ص24.

3- الجاحظ: البيان والتبيين، حققه عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ج 1 ص 139.

4- ابن المعتز: كتاب البديع، حققه كراتشكفسكي، لندن 1931، ص 58.

5- عن الشيخ أحمد الشرقاوي إقبال: معجم المعاجم، دار الغرب الإسلامي، ط 1، ص43.

6- ابن ولاد :المقصور والممدود، نشرته مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1992، ص122.

7- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، ج 1 ص250.

8- ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية،1982، ص166.

9- أبو سعيد السيرافي: صنعة الشعر، حققه جعفر ماجد، دار الغرب الإسلامي، 1995، ص212.

10- الخطيب التبريزي: الكافي في العروض والقوافي، حققه الحساني عبد الله، مكتبة الخانجي، ط 3، 1994، ص141.

11- الآمدي: الموازنة بين الطائيين، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، ص257-258.

12- ابن خلدون: المقدمة، حققها علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ص1034.

13- ووقفنا في كتب التراث العربي الإسلامي على عدد من العناوين وردت فيها هذه الكلمات، منها ما يدل دلالة ظاهرة على الاصطلاح ، ومنها ما لا نستطيع الجزم أنه دال عليه، لأنا لم نطلع عليها جميعاً، فلذلك نذكرها كما هي لعل قارئا غيرنا يطلع عليها فيرشدنا إلى ما فيها، فمن هذه العناوين: كتاب التسمية للغذة (ت 210هـ)، ذكره ابن النديم في الفهرست ص 121 وياقوت في معجم الأدباء ص 874، كتاب أسامي الأشياء للبلخي (ت 322 هـ) (الفهرست 198 ومعجم الأدباء 274)، كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء للعسكري (ت 395هـ)، كتاب السامي في الأسامي للميداني (ت 518هـ) مطبوعان ولم نطلع عليهما ، كتاب أزاهير الرياض المريعة وتفسير ألفاظ المحاورة والشريعة للبيهقي (ت518هـ) (معجم الأدباء 1762) كتاب أسامي الأدوية وخواصها ومنافعها للبيهقي أيضاً، قال ياقوت (ص1763): " وهو معنون بتفاسير العقاقير "، كتاب الألفاظ الجارية على لسان الجارية وكتاب الاختصار في الكلام على الألفاظ التي تدور بين النظار وكتاب الفائق في أسماء الحدائق، والثلاثة لأبي البركات الأنباري (ت 588هـ) (هدية العارفين (519-520)، كتاب الكلم الفارقية في الكلم الإلهية للحظيري (ت 568 هـ) (وفيات الأعيان 317/7)، كتاب لهجة الشرع في شرح ألفاظ الفقه للخوارزمي النحوي (ت 638هـ) (هدية العارفين 707/1)، كتاب شرح ألفاظ الصوفية لابن عربي(ت 638هـ)(هدية العارفين 116/2). هذا وطبعة معجم الأدباء التي نحيل عليها هي التي حققها إحسان عباس سنة 1993 ونشرتها دار الغرب الإسلامي، وصفحاتها مرقمة من 1 إلى 2860.

14- Alain Rey: la terminologie, noms et notions, coll. Que sais-je. 20

15- الغزالي: معيار العلم، شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، 1990، ص273.

16- طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب العلمية، ج1/ص122.

17- إسماعيل باشا: هدية العارفين، أسماء المولفين وآثار المصنفين، اسطنبول 1951، ج 27/1.

18- ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، ص99.

19- ابن فارس: الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1977، ص78.

20- معجم المعاجم، ص7.

21- المقدمة، ص1035.

22- المقدمة، ص1039.

23- معجم المعاجم، ص9.

24- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن حققه محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1961، ص6.

25- الخوارزمي الكاتب: مفاتيح العلوم، نشره إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي،1989،ص13

26- محي الدين الأصفهاني، ثلاث رسائل ، نشرها آلار وتروبو بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت، 1962، ص39.

27- معيار العلم، ص273.
28- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مطبعة المعارف، 1941،ص 107.
29- ابن عربي:اصطلاحات الصوفية، نشرها فلوجل ملحقة بالتعريفات للجرجاني وسماها اصطلاحات الشيخ محي الدين، راجع التعريفات، ص238.
30- الكاشاني: اصطلاحات الصوفية، حققها عبد الخالق محمود، دار المعارف، ط 2: 1984، ص44.
31- ووقع لفظ الاصطلاح في عناوين عدد من الكتب، أحصينا منها ما بين القرن السابع والقرن العاشر ما يلي: الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي (ت 656هـ) ، قال في كشف الظنون (ص213) : "ألفه في محرم 627هـ" أحكام الجدل والمناظرة على اصطلاح الخراسانيين والعراقيين، للمدائني (ت656هـ) (كشف الظنون ص18)، اصطلاح الصوفية والتنبيه على مقاصدهم الجزئية والكلية للرقام الصوفي (ت 705هـ) (هدية العارفين 830/1)، مشبهات اصطلاح العلوم، للبلفيقي (ت782هـ) (هدية العارفين 341/1) البيان في اصطلاح أهل الزمان، لابن الركن (ت803هـ) (هدية العارفين، 177/2)، محاسن الاصطلاح في تضمين ابن الصلاح للبلقيني (ت 805هـ) (كشف الظنون، 1608)، مرقاة العلماء لاصطلاح الحكماء للحلبي (ت 875هـ) (هدية العارفين، 640/1)، الاقتراح في الاصطلاح، لابن دقيق العيد (ت911هـ).
32- المقدمة:1025-1027-1034-1039-1050-1061-1083-1099-1100-1105-1113-1128-1140-1159-1197-1236-1240-1254-1266-1277-1320-1326.
33- الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات،نشره فلوجل سنة 1845، أعادت طبعه مكتبة لبنان 1978، ص28.
34- كشف الظنون، ص33-34.
35- يحي عبد الرؤوف جبر: الاصطلاح: مصادره ومشاكله وطرق توليده، مجلة اللسان العربي، العدد 36، سنة 1992، ص142-157، وراجع العدد 46، سنة 1999،ص9-18.
36- رسائل فلسفية للرازي، دار الآفاق الجديدة، ط5، 1982، ص44.
37- السهلي: نتائج الفكر في النحو، حققه محمد إبراهيم البنا، جامعة قاريونس، 1978، ص64.
38- ابن خلكان: وفيات الأعيان، حققه إحسان عباس،دار صادر، ج 4 ص 225.
39- هدية العارفين، 116/2.
40- كشف الظنون، ص420.
41- كشف الظنون، ص127.
42- هدية العارفين، 172/2.
43- كشف الظنون، ص1711.
44- كشف الظنون، ص1936.
45- كشف الظنون، ص 1936
46- كشف الظنون، ص 494
47- كشف الظنون، ص 319.
48- كشف الظنون، ص 766.
49- كشف الظنون، ص 494.
50- مفتاح السعادة، ج1، ص249.
51- الصفدي: فض الختام عن التورية والاستخدام، حققه المهدي عبد العزيز الحناوي دار الطباعة المحمدية 1979، مقدمة المحقق، ص110
52- فض الختام، ص127.
53- المقدمة، ص657-676.
54- المقدمة ، ص972.
55- التعريف بان خلدون، ملحق بتاريخ ابن خلدون ضبطه خليل شحادة وراجعه سهيل زكار دار الفكر،1981،ج7ص656.
56- السيوطي: "الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر،ج1 ص3.
57- داود الأنطاكي: تذكرة ذوي الألباب والجامع للعجب العجاب، المكتبة الثقافية، ج 1 ص19.
58- التهاوني: كشاف اصطلاحات الفنون.
59- المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939، ج 3 ص 23.
60- الرسالة، ص10، من مقدمة المحقق.
61- المعجم الوسيط، ج 1 ص9.
62- ياقوت الحموي: معجم الأدباء (وهو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، حققه إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1993، ص 2918.
63- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمه إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف...، ج 1 ص341-342.
64- راجع الموشح للمرزباني، نشره محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، 1995، ص28-29.
65- وفيات الأعيان، ج 2 ص244.

66- صنعة الشعر، ص 264.

67- كتاب البديع، ص2-3.

68- قدامة بن جعفر: كتاب نقد الشعر، نشره عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية،ص 68.

69- المقصور والممدود، ص122.

70- راجع كتاب البديع، ص53، وكتاب الصناعتين، حققه علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، 1986، ص 410، وكتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2 ص 78 -79، والكافي في العروض والقوافي، ص170.

71- تاريخ ابن خلدون، ج 7 ص655.

72- الفارابي : كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق، ص43.

73- البيان والتبيين، ج 1 ص138-139.

74- الموشح، ص29.

75- المرزباني: نور القبس المختصر من المقتبس، حققه رودلف زلهايم، فيسبادن 1964، ص71.

76- قدامة بن جعفر، كتاب الخراج وصناعة الكتابة، حققه محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر 1981، ص204.

77- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، حققه السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية 1981، ص101-102.

78- المزهر ، ج1 ص295-296 والصاحبي، ص86، وقد ذكر محققا المزهر في الحاشية 5 ص294، من ج1 أن ما سمي في الصاحبي "باب الأسباب الإسلامية" قد يكون صوابه "باب الأسماء الإسلامية"، وقالا إنهما وجداه كذلك في تعليق – لم يسميا صاحبه – على الصاحبي.

79- الخصائص، ج 2 ص447.

80- عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات ، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 45.

81- ابن سينا: القانون في الطب، مكتبة المثنى، ج 1 ص78، وراجع تذكرة الأنطاكي ج 2 ص43-44، وهامش التذكرة ج 1 ص 291-292.

82- قاموس اللسانيات، ص 47-53.

83- الفهرست، ص 349.

84- البيان والتبيين ، ج 1 ص139.

85- كتاب البديع، ص58.

86- المقدمة، ص1099.

87- المقدمة، ص1197.

88- صنعة الشعر، ص 44.

89- المقدمة، ص1314-1315.

90- راجع ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشره سميح الزين، دار الثقافة 1981.، ج3 ص75.

91- ابن البيطار: تفسير كتاب ديسقوريدس في الأدوية المفردة، حققه إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي 1989، ص109.

92- الألفاظ المستعملة في المنطق، ص43.

93- قدامة بن جعفر: كتاب الخراج، ص23-24.